

مركز حمورابي



قراءة نقدية في مفهوم العروبة

قراءة نقدية في مفهوم العروبة

د. ندى اسامة ملكاني / سوريا

مركز حمورابي للبحوث والدراسات الإستراتيجية

12 تشرين الاول 2024

حقوق النشر محفوظة لمركز حمورابي
للبحوث والدراسات الإستراتيجية

لا يجوز نشر أي من هذه الابحاث والدراسات والمقالات الا
بموافقة المركز، ويجوز الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملا، وليس من
الضروري ان تمثل المقالات والابحاث والدراسات والترجمات المنشورة وجهة
نظر المركز وانما تمثل وجهة نظر الباحث

إن فرضية إعادة التأكيد على تحقيق هوية جامعة للشعوب العربية ذات بعد ومشروع سياسي متمثلاً بالقومية العربية القائمة على مبدأ العروبة على المستوى الثقافي والمستوى السياسي كفيل بأن تقف حصناً في مواجهة الهويات القائمة على أساس الدين أو الطائفة ما يشردم الشعوب العربية ويحولها إلى طوائف وأديان تبعدها عن تحقيق الطموحات العربية المشتركة في مواجهة تحديات بناء الدولة المدنية التي تتجاوز الولاءات العمودية القائمة على العشيرة والطائفة والقبيلة والروابط الوشائعية الأخرى وتحديات خطر مواجهة العدو الصهيوني الذي يمثل آفة العلل في المنطقة...إنها فرضية تستحق الدراسة والوقوف بالتحليل الدقيق على مضامينها ومتغيراتها.

إدراك الأنا أنها عربية لدى الشعوب التي تتشاطر ثقافة واحدة وحلماً سياسياً وحدوياً واحداً يعني بالمقابل إدراكاً لتمييزها عن غيرها أي عن بقية الأمم الأخرى، من حيث أنها تتحدث لغة واحدة وتنتمي إلى بوتقة ثقافية واحدة تسعى لتحقيق حلم سياسي يتمثل بالوحدة العربية، ويعني أيضاً وجود "هوية عربية" في مقابل هويات ذات بعد آخر كالهويات القطرية والهويات الطائفية. إنها فكرة جاذبة ونبيلة وفيها الكثير من الحلول المثالية للمشكلات التي تواجه سعي الإنسان في الوطن العربي في تحديده لمن يكون وتحديد موقعه في شبكة من العلاقات الاجتماعية والثقافية والسياسية.

على صعيد الواقع، لا بد من القول إن تثبيت الهوية في معطيات الماضي يتغافل عن أن الهوية هي مشروع أيضاً للمستقبل، صحيح أن القول بالهوية أنها عربية على مستوى مطمح مأمول ومرغوب به استناداً إلى التاريخ، لكن المشكلة تكمن في فهمنا كعرب للتاريخ من جهة ومن جهة ثانية موضوع الإرادة السياسية.

بعبارة أخرى، وكما يرى حسن حنفي في كتابه "التراث والتجديد": (إن التراث هو الوسيلة بينما التجديد هو الهدف، وإن التراث لا وجود له دون الواقع الذي يتغير باستمرار. التراث هو المخزون النفسي للجسم). ورد هذا الاقتباس في معرض تحليل (الفضل علي شلق) لموضوع الهوية والتراث في كتابه: "الوعي والمأزق: تجليات الفكر في مشكلات العرب". إذ يرى المؤلف شلق أن الهوية لا تصير مشروعاً إلا عندما تؤسس نفسها على التجاوز. ما أراد الكاتب قوله من خلال قراءتي هو أن موضوع التجديد مهم جداً في تحديد معطيات الهوية في الحاضر وصولاً لرسم معالم مستقبل. لكن عندما تفلت السيطرة على الماضي الذي يصبح تراثاً بدلاً من أن يكون تجربة يبني عليها ويكون سيرة للشخصيات العظيمة. أو كما يقول الباحث حمدي حسن: "إن تاريخ الدول العربية

هو تاريخ القادة الملهمين"، وعندما يصبح الحاضر مهزوزا مقابل الحياة القادمة من الجنة التي يوعد بها الصابرون أو الحياة المنذرة بالحرق عقابا من الله على الخطايا، يضيع المستقبل ويصبح الحاضر قليل الأهمية. يصبح الحاضر قليل الأهمية ليس بسبب الدين فهو حاجة اجتماعية وإيمانية ولا يمكن فصله عن تاريخ الشعوب العربية، بل لأن ذلك الحديث يقودنا إلى الإشكالية الثانية وهي غياب الإرادة السياسية القادرة على تحويل الحلم المأمول إلى واقع معاش في إطار مشروع سياسي تصب الهوية في حاضنته. فلا تحققت الوحدة العربية ولا بنيت الدولة الوطنية على اعتبارات المواطنة وسيادة القانون ولا تم تحقيق تقدم على صعيد القضية الفلسطينية جوهر الانتماء العربي. ما يعني أن الانتماء العربي قد يكون شعارا مسيسا لدى بعض النخب الثقافية والسياسية ولدى الأنظمة السياسية يبرر إهمال الشأن الداخلي للدولة وسوء فهم أهمية العمل الدؤوب والإرادة السياسية في بناء الدولة. فأخفقت دولة الوحدة العربية المأمولة وتعثرت عملية بناء الدولة "القطرية" فعن عن أي هوية عربية مقابل هوية قطرية نتحدث؟ ربما الأنسب والأدق أن نقول قويت الأنظمة السياسية على حساب أي انتماء للدولة وطنية كانت أم وحدوية. ويرى الفضل شلق أن العرب فشلوا في بناء الدولة الوحدوية وفي بناء الدولة القطرية أيضا. إذ لم يحصل العرب بعد أكثر من نصف قرن على استقلال معظم أقطارهم إلا على منظومة هشة متمثلة بالجامعة العربية.

يرى عزمي بشار أن العروبة هي فيما معناه هوية أو رابطة تحمي العرب من الوقوع في براثن الطائفية، وأنه إذا لم نعد عربا فسنصبح طوائف. ما أود قوله هو أن العروبة هي فكرة أكثر من كونها مشروعا سياسيا ناجعا يوحد العرب. والقول بأن وحدة الشعوب العربية هو المطلوب هو قول لا يقل طوباوية عن فكرة الدولة العربية الموحدة. فبأي معنى نطرح مشروعا سياسيا إذا لم يكن هناك أصلا حاضنة شعبية ووعي جمعي ومخزون شعبي يؤيد ويدفع باتجاه هذه المقولة.

على صعيد الإرادة السياسية، يبدو أن عدم تشجيع الدولة القطرية على نمو الأفكار جعلت من الأداة الثقافية التنويرية أداة تبرير أكثر من كونها نقد وتمحيص وتجاوز. من المهم جدا أن تدافع عن فكرة تؤمن بها لكن ليس لتبرير واقع راهن لا يعبر عن مطمح الشعوب، وتحميل الشعب وثقافته المتخلفة مسؤولية انعدام الأفق والمستقبل المظلم هو أمر خطير.

لقد عجزت الإرادة السياسية عن تحقيق أحلام المجتمعات العربية ولم تتوقف عند ذلك بل تعمق في الدولة القطرية تيار يصب جام غضبه على المجتمع أنه بؤرة التخلف والعجز وينسى أن السياسة هي تدبير للمجتمعات وإدارة صالحه العام. ومن جهة ثانية عزا ذلك التيار تخلف

المجتمع إلى بناء الثقافة العصبية على التغيير، في الوقت الذي يكون فيه تفسير سلوك البشر على أساس ثقافي هو تفسير منقوص دون أن تكتمل الصورة بوجود حامل سياسي إصلاحي. لم تنفذ العروبة كفكرة وكانتماء سام المجتمعات العربية من الوقوع في شرك الطائفية ولم يستطع الحامل السياسي للانتماء العروبي المتمثل في القومية العربية من إيجاد صيغة لبناء عقد اجتماعي بين أفراد المجتمع يستند إلى اعتبارات المواطنة وإقرار الحقوق بالتوازي مع الواجبات. إن من أهم سمات هذا العقد هو بناؤه على الحوار الذي تتجسد فيه تفسير القضايا من وجهة نظر الناس أنفسهم وليس شيئاً مفروضاً عليهم.

إن فرض أجندات الإصلاح في تسعينيات القرن العشرين من قبل مؤسسات بریتون وودز ليس أكثر خطورة من تطبيق وصفات إصلاحية من النخب والأنظمة بعيداً عن شعوبها. فلا بد من حوار جدي حول قضايا الناس مع الناس ومن أجل الناس وهو جوهر السياسة كتدبير لشؤون المجتمع، فلا داعي إذن لتكرار توجيه إصبع الاتهام نحو المجتمع في كل كارثة متعلقة بسوء إدارة مؤسسات الدولة.

إننا عرب وهذه حقيقة وجدانية، والعروبة انتماء وجداني عميق، ولكن ما أود قوله هو الإرادة السياسية ثم الإرادة السياسية، فالهوية برنامج عمل يصنع التاريخ وليس فقط تراثاً وسرداً تاريخياً لوقائع تعمق الشعور بالهزيمة بدلاً من أن تبني إرادة الفعل وليس فقط قصص الأبطال العظماء أو القادة بل التاريخ هو مسيرة من الماضي لصنع المستقبل مروراً بالحاضر الذي لا يجب أن يكون مغبوناً في هذه المعادلة.

الحاضر هو نقطة البدء، هو النقطة الضائعة في الأذهان، نحن غارقون في خلافات الماضي وهزائمه ويرهبنا المستقبل في ظل ما نعيشه من حروب وجود وحروب قيم. الإرادة السياسية تتطلب أن تلي حاجات شعوبها وتعبر عن مطامحهم، فإذا كانت العروبة حقيقة وجدانية فإن المشروع السياسي هو الذي سيدخلنا مجدداً إلى التاريخ في سيرورته الممتدة نحو المستقبل.

يواجهنا حاضر مرتبط بحروب المنطقة وبراغماتية التحالفات السياسية وخارطة المصالح السياسية، هذه الحروب أثبتت أنه إذا اقتصرنا الهوية على تأكيد الذات وحسب للدفاع عنها في وجه التحديات الأقوى الآتية من الخارج، دون قدرة على الفعل والتجاوز والتجديد أمر يضع الماضي في إطار المقدسات التي لا يجوز المساس بها.

الفعل السياسي هو من يستطيع بناء الثقافة وليس التراث هو من يسحق الطموح. بمعنى آخر، الفعل السياسي الذي يحول الهزائم للقدرة على الفعل وحل مشكلات الشعوب العربية الاقتصادية والسياسية هو الذي يبني ثقافة مجتمعية تكون فيها الإرادة على تجاوز عبء الماضي حافزا للعمل وليس التراث هو المسؤول عن هزائمنا.

إن القراءة النقدية لمفهوم العروبة يتطلب تقييم النتيجة السياسية المأمولة والمرغوبة من رابطة العروبة. فإذا كان وضع انتماء أسمى فوق الطائفة والقبيلة والعشيرة هو النتيجة المتوخاة من العروبة فهذا يتطلب برنامجا سياسيا على صعيد الدولة الواحدة أفضل من حشر العروبة في إيديولوجيات وخطابات وشعارات الأحزاب السياسية لتبقى مجرد شعارا يعرقل مسيرة بناء الدولة الوطنية.

وإذا كانت القضية الفلسطينية هي جوهر العروبة، فالأجدر بالمنظومة العربية المترهلة المتمثلة بجامعة الدول العربية أن تتخذ خطوات جديدة على صعيد النظام الرسمي العربي لدعم قضية فلسطين واتخاذ الفعل العربي الذي انتظرته الشعوب العربية منذ حوالي سنة أي منذ بدأ العدوان على قطاع غزة عقب طوفان الأقصى، ولو أنها اتخذت الفعل المناسب الذي يعبر عن مكانم العروبة في عمق الوجدان العربي لما تجرأ الكيان الصهيوني على متابعة عملياته المنفلتة من عقابها على جنوب لبنان.

لا شك أن حديث الشارع العربي عن "الجرح العربي" إثر العدوان (الإسرائيلي) على غزة وجنوب لبنان في العام الجاري 2024 هو دليل على أن العروبة كشعور هي شيء متجذر في الضمير العربي عجزت الطروحات السياسية عن استيعابه في إطار مشروع على أرض الواقع أقل ما يستطيعه هو صد الاعتداء والدفاع عن النفس، في حين استطاعت فصائل المقاومة أن تذهب بعيدا وأبعد من مقولات القومية العربية على صعيد دعم القضية الفلسطينية التي هي جوهر العروبة. لذلك الهدف اليوم من مواصلة الاحتلال الإسرائيلي هجماته على القطاع والجنوب هو القضاء على هذه الفصائل التي تسعى لربط الضمير العربي بهوية يستشعر بها وجوده وهي ثقافة المقاومة. وذلك جزء من ترتيبات ومنافسات دولية على تشكيل نظام دولي وأبعد من شعارات ومقولات طوباوية تجسد الحلم العربي.

لذلك قلت سابقا إن الهوية التي لا تحمل في جوهرها التجدد وتبقى أسيرة التراث لا تستطيع الاستجابة لواقع متغير فهي يجب أن تكون مشروعا ممتدا للمستقبل. تجديد الهوية أمر لا يعني تلك الخطوة التي تنسف فهمنا لذواتنا كعرب بل تعيد تشكيل المفاهيم وفقا لحاجات المستقبل. هل كوننا نشعر بأننا عرب حمانا من تصاعد الهويات الفرعية في 2011؟ هل كوننا عربا أجنبنا على سؤال لماذا تكون الحركات السياسية التي تحمل شعارات إسلاموية تسهم في رسم خارطة السياسات في المنطقة بين محور مقاومة ومحور الغرب؟ لا شك أن محور المقاومة المدعوم من إيران له مشروع سياسي في المنطقة وهنا النقطة الأساسية أن لدى إيران مشروعا تسعى لتحقيقه. مشروع سياسي فما هو المشروع السياسي للدول العربية الآن إذا ما افترضنا أن هويتنا عروبية؟ الوحدة؟ التكامل الاقتصادي؟ تحرير فلسطين؟ لا يبدو هناك خطابا عروبية أصلا.

لنتوقف قليلا عند هذه النقطة، يرى الدكتور جورج جبور رئيس اللجنة التحضيرية للجمعية العربية للعلوم السياسية 1977-1985 في كتابه "نحو علم عربي للسياسة" أن بحث الهوية مرتبط ارتباطا عضويا بمناهضة الكتلة الاستيطانية، فيما إذا كنا مستقرين على أن هويتنا الأساسية هي أننا عرب. فإذا لم نكن متفقين على أن هويتنا الأساسية أننا عرب بل هي هويات قطرية، فمعنى ذلك انتفاء ارتباط الكتلة الاستيطانية بالهويات القطرية ارتباطا إعدام متبادل. وضمن هذا النظام من الأفكار أيضا لا يعود ثمة قضية عربية بمواجهة (إسرائيل)، بل يصبح الموضوع قضية عربية فلسطينية محضة بمواجهة (إسرائيل)، وهي قضية من المحتمل أنها خاسرة، إذ لا أمل لها بنصر عسكري ولا بتوازن استراتيجي بل جل ما تستطيعه هو الاستجداء. ويتابع، ففي التمسك بهوية عربية واحدة أمل يرتجى في مناهضة الكتلة الاستيطانية.

القضية ليست في تحديد ما إذا كانت هويتنا عربية وأن ذلك يقف في وجه تفتيت المنطقة إلى كيانات طائفية ودينية، لكن القضية تتوقف على الشيء الكفيل بمواجهة العدو الصهيوني بالمنطقة وتحقيق متطلبات الحياة الأساسية على صعيد الدولة الواحدة. أي عدم التوقع في الحديث عن الهوية العربية كأنها تراث وتقليد نتشبت به في وجه من يتآمر علينا. بل اعتبار الهوية مشروعا وليس مجرد معطى من الماضي أو التراث كما يرى كاستلز ويعقب على كلامه الفضل شلق، والذي يقول "بدأت أفهم الفرق بين الهوية كدوران حول الذات، حول الماضي، وكحفاظ

على التراث والتقليد وبين أن تكون الهوية مشروعا تنمويا... ففي الحالة الأولى، تضيع الهوية أو تصبح فلكلوريا تكتشف الأنثروبولوجيا جواهره، بكل بساطة وتبسيط، وفي الحالة الثانية يكتسب التراث والهوية معنى جديدا مغايرا يخرج من الماضي ويصنع التاريخ والمستقبل، في الأولى نعطي المغزى ونكون موضوعا للغير وفي الحالة الثانية نصنع المغزى ونصير ذاتا فاعلة".

إذن النقاش الدائر ليس ما إذا كانت الهوية العربية هي الحصن المنيع في مواجهة الطائفية والهويات الفرعية الأخرى، بل توافر الإرادات السياسية القادرة على تحويل موضوع الهوية من قضية تراث إلى مشروع يدخلنا التاريخ أي مشروع نحو المستقبل.

مركز حمورابي للبحوث و الدراسات الاستراتيجية

أسس مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية في 25-4-2012 بمدينة بابل (الحلة)، كمركز علمي بحثي يمتد الى دراسة الموضوعات السياسية و المجتمعية بصورة علمية و استراتيجية، فضلاً عن التركيز على القضايا والظواهر الحادثة والمحتملة في الشأن المحلي والأقليمي والدولي ، ويتعامل مع باحثين من مختلف التخصصات داخل العراق وخارجه، وتحتضن بغداد المقر الرئيسي للمركز.

www.hcrsiraq.net



07810234002



hcrsiraq@yahoo.com



t.me/hammurabicrss



مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية



[hcrsiraq](https://www.instagram.com/hcrsiraq)



العراق - بغداد - الكرادة

